روسيا ومشروع سكة حديد بغداد

الدكتور فوزي عبد المجيد
جامعة البصرة

بدأ اهتمام المانيا بالدولة العثمانية منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر • وقد ظهر هذا الاهتمام في مؤلفات الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» (١) • فقد نبه الى ما تتمتع به الامبراطورية العثمانية من أهمية كبرى بالنسبة لألمانيا ودعا الى مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع الدول الاوروبية للاستفادة من أسواق الامبراطورية العثمانية ، كما أنه تنبأ بقرب سقوط تلك الامبراطورية • وكان يرى أن اتحاد دول وسط اوروبا بزعامة بروسيا هو الوسيلة الناجحة لمجابهة بريطانيا اذ بوسع هذا الاتحاد أن يستفيد من الاجزاء الاوروبية للامبراطورية العثمانية وعارض ليست هجرة العنصر الجرماني الى العالم الجديد ودعا الى أن تتجه الهجرة الى هذه الاجزاء ولا سيما الى هنغاريا لانها المدخل الى الدولة العثمانية (٢) •

---

1 - List - National System of PoliticealEconomy 1901 London .

2 - Ibid t IX p. 558 .

لقد دعا ليست الى اقامة شبكة من الخطوط الحديدية تربط بين اوروبا وأجزاء امبراطورية العثمانية كمصر وبلاد الشام وما بين النهرين، وان ذلك يقل أهمية عن خطوط الملاحة البحرية التي تربط بين اوروبا والشرق الاقصى لأن هذا المشروع سينعش التجارة الالمانية وسيسهل نقل مصنوعات بافاريا وفرانكفورت وميونيخ الى الشرق وسيلحق أضرارا كبيرة بالمصالح الفرنسية والروسية في الامبراطورية العثمانية [1] . كما ظهرت مثل هذه النوايا الالمانية الاستعمارية بالنسبة للدولة العثمانية بصورة واضحة في المقالات التي نشرها مولتكا بعد رجوعه من اسطنبول حيث شغل هناك منصب رئيس البعثة العسكرية الالمانية سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٩ [2] .

وبعد قيام الوحدة الالمانية وما تبع ذلك من تطور سريع في الاقتصاد الالماني ازداد اهتمام البرجوازية الالمانية بالدولة العثمانية كسوق لتصريف صناعاتها والاستفادة مما يتوفر فيها من المواد الاولية ، وهكذا بدأت المانيا منذ سنة ١٨٨٠ تكرس اهتماماتها في موضوع المسألة الشرقية . ولعل وجود البعثة العسكرية الالمانية برئاسة الفون «كولتز» في اسطنبول ١٨٨٢ ـ ١٨٩٥ أوضح دليل على تزايد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية . وتعتبر مصانع كروب الحربية من أولى المؤسسات الصناعية الالمانية التي عقدت صفقات تجارية مع الدولة العثمانية وخاصة بعد الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ . ثم جاء دور البنوك الالمانية في الحصول على امتيازات بناء السكك الحديد في آسيا الصغرى .

---

1 - Ibid t VII 274 - 275 .

2 - Moltke - Speeches and momaries Newyork 1893 .

وظهرت فكرة مشروع سكة حديد بغداد منذ السبعين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر عندما فكر بها المهندس النمساوي «الفون بريسل» والذي كان يعمل لدى الدولة العثمانية كخبير في شؤون السكك الحديد • فرحب السلطان عبد الحميد الثاني بهذا المشروع وانجز القسم الاول منه في الفترة ١٨٧١ ــ ١٨٧٣ الذي يصل اسطنبول ومدينة أزمير وتم تنفيذ المشروع برؤوس أموال فرنسية ثم انتقل هذا الامتياز الى البنك الماني عام ١٨٨٨ • وقام هذا البنك بتأسيس شركة لبناء الخطوط الحديدية في الاناضول • ودخل رأس المال الالماني في صراع عنيف مع رؤوس الاموال الانكليزية والفرنسية للسيطرة على مشاريع السكك الحديد في الامبراطورية العثمانية حتى استطاع في نهاية القرن التاسع عشر أن يسيطر على ٢٥٠٠ كم من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان [١] • وبعد اندحار الدولة العثمانية في حربها مع روسيا القيصرية ركز السلطان عبد الحميد اهتمامه على انجاز مشروع سكة حديد بغداد لتقوية نفوذ الحكومة المركزية على بقية الولايات لاسيما غير التركية منها ولتسهيل القضاء على الثورات التي تقوم في المناطق النائية من أرجاء الامبراطورية • الا أن انشغال السلطان بالحرب البلغارية ١٨٨٥ ــ ١٨٨٨ أخر تنفيذ المشروع• وكان السلطان عبدالحميد يحبذ أن يتولى تنفيذ هذا المشروع ألمانيا او الولايات المتحدة الاميركية باعتبار أن هاتين الدولتين ليست لهما أطماع سياسية في الامبراطورية العثمانية ، وان قيام احداهمابتنفيذه لا ينطوي على أي نوع من الاخطار • على أن العسكرية الالمانية أخذت تعير

---

(١) توبوليف ــ الأمبريالية والعسكرية الالمانية موسكو ١٩٦٥ ص ٢٢٢ « باللغة الروسية » .

مسألة الربط بين شبكة الخطوط الحديدية في أوروبا وشبكة الخطوط في آسيا الصغرى اهمية بالغة. وكان لبعثة الفون كولتز اثر ليس بالقليل على ذلك . اذ اقترحت على السلطان العثماني ضرورة بنـــاء شبكة من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى لخدمة الاغراض العسكرية . ولم يهتم بسمارك بتلك المشاريع عكس الامبراطور وليم الثاني الذي أعـار موضوع التوسع الالماني في الدولة العثمانية أهمية كبرى اضافـــة الى اعتقاده بان الحرب مع روسيا أمر حتمي وان الامبراطوريـــة العثمانية ستكون حليفا لالمانيا في تلك الحرب [1] .

لقد شعرت روسيا القيصرية بخطورة هذا المشروع على مصالحهـا الاستعمارية في الامبراطورية العثمانية فحاولت القضاء عليـــه وهـو لا يزال في المهد . فذكرت السلطان العثماني بالصداقة الروسية العثمانية وحذرته من مغبة اعطاء الامتيازات لبناء السكك الحـــديد في بـلاده المدول الاوروبية . فلم يلتفت السلطان العثماني الى التحذيرات الروسية لاعتقاده بان روسيا لا تملك قدرات عسكرية فعالة تمكنها من مجابهـة النفوذ الالماني . يضاف الى ذلك ان على بتروغراد ان تأخذ بنظر الاعتبار طوعا أو كرها مصلحة حليفتها فرنسا في الحصول على امتيازات جديدة لرؤوس اموالها في أرجاء الامبراطورية العثمانية . الا أن روسيا حاولت من جهة اخرى الاتفاق مع المانيا لحماية مصالحهـــا في الامبراطوريـة العثمانية والتي ستتعرض للخطر نتيجـــة لتزايـــد النفوذ الالماني في اسطنبول . فصرح السفير الروسي في برلين أثناء حديثه مع وزير خارجية

---

(١) خفستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ جـ ٢ ص ١٣٦ ــ ١٣٧ « باللغة الروسية » .

المانيا الهر بيلوف • بان النجاحات الاقتصادية الالمانية في الامبراطورية العثمانية سوف تؤدي الى انتصار السياسة الالمانية وهيمنتها على الدولة العثمانية ، وهذا ما لا تسمح به روسيا • فرد عليـــه الوزير الالمانـي بقوله : ان ما تحتاج المانيا اليه هو الاسواق وأهدافهـا اقتصادية فقط وليس هناك أية خطورة على المصالح السياسية الروسية في الامبراطورية العثمانية • الا ان روسيا لم تثق بهذه التعهدات فاقترحـــت على المانيا توقيع اتفاق ينص على اعتراف المانيا بحقوق روسيا في المضايق مقابـل تعهد روسيا بعدم عرقلة مشاريع السكك الحديد في آسيا الصغرى [1]. وصرح السفير الروسي : بان أهداف حكومته هي ضمان سلامة الدولة العثمانية ولا يسمح بزحزحة المصالح الروسية في المضـايق أو تعرضها للخطر وفي حالة ظهور مثل هذه الاخطار فان روسيـــا ستكون ملزمة باحتلالها [2] •

لم تعر الحكومة الالمانية اذنا صاغية للتهديدات الروسية وعروضها بعقد الاتفاقية بسبب قوة مركزها في السياسة الدولية بعد حصولها على ميناء «بورت ارثر» في البر الصيني والذي حد من نفوذ روسيـــا في الشرق الاقصى وشكها في احتمال لجوء روسيـــا الى اسلـوب القوة والحرب لحماية مصالحها ولذلك لم تر من مصلحتها أن توافق على تحديد نفوذها في الدولة العثمانية •

---

1 - W. L. Langer . the diplomacy of imperialism1890 - 1902 New-york 1951 p. 640 .

(٢) خفستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ ج ٢ ص ١٣٨ « باللغة الروسية »

زار الامبراطور وليم الثاني اسطنبول للمرة الثانية سنة ١٨٩٨ . وقد ساعدت هذه الزيارة المؤسسات الالمانية في حصولها على امتياز سكة حديد بغداد وتمت موافقة السلطان المبدئية على ذلك المشروع في ٢٣ كانون أول من عام ١٨٩٩ وقد استاء الحكام الروس بعد أن وصلت اليهم أنباء الامتياز لاسيما وان روسيا القيصرية كانت أشد الدول الاوروبية معارضة للمشروع منذ اللحظة الاولى لظهور فكرته . اذ أنها اعتبرته وسيلة لتقوية النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية وانه سيسهل نقل وتصدير منتجات الحبوب من كافة ارجاء الامبراطورية العثمانية الى الاسواق العالمية . وفي نفس الوقت يسهل مهمة نقل المنتجات الصناعية الاوروبية وخاصة الصناعات الالمانية الى أسواق الشرق وهذا ما يهدد مصالح النبلاء والاقطاعيين الروس واصحاب المصانع والتجار منهم في الوقت الذي يحول فيه الامبراطورية العثمانية الى مستعمرة المانية . ولم يكن المشروع ضد خطط روسيا القيصرية التوسعية في الشرق الادنى فقط بل جاء تهديدا مباشرا لحدودها الجنوبية كذلك . وكان لهذه الاعتبارات أثر واضح في تحديد موقف روسيا القيصرية من مشروع السكة . وقد كتب السكرتير الاول للسفارة الروسية في اسطنبول « تشاريكوف» في سنة ١٨٩١ مقالة المعنون « تساؤلات حول مشروع سكة حديد آسيا الصغرى » جاء فيه: ستنافس آسيا الصغرى روسيا بعد تنفيذ مشروع سكة حديد الاناضول ــ بغداد في تصدير الصوف والجلود والحبوب الى الاسواق العالمية كما سيسهل عملية تدفق البضاعة الغربية ورؤوس الاموال الى آسيا الصغرى وسيمتد ذلك الى اسواق فارس بعد ان كانت سكة حديد القفقاس مغلقة امام البضاعة الاوروبية منذ سنة ١٨٨٣ فستصل هذه

البضائع الى شمال فارس عن طريق آسيا الصغرى [1] . وقد أوضح تشاريكوف انبناء الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيساعد على تدفق البضاعة الاوروبية الرخيصة الى فارس وافغانستان ويوجه ضربة قوية للصادرات الروسية الى تلك الاقطار . وجاء في تقارير تشاريكوف السرية التي بعث بها الى بتروغراد ان بناء شبكة الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيؤدي الى توسع النفوذ الاقتصادي للدول الاوروبية ولا سيما المانيا وبريطانيا في الدولة العثمانية وان هذا النفوذ الاقتصادي سيؤدي بدوره الى ازدياد النفوذ العسكري والسياسي لتلك الدول على سواحل البوسفور وعندئذ تفقد روسيا ممرها الحيوي الوحيد من خلال البحر الاسود ومن جميع مناطق الجنوب ولا يمكن استرجاع هذا المنفذ الحيوي الا باندلاع حرب عالمية [2] . وقد حققت البرجوازية الروسية في الواقع مكاسب اقتصادية مهمة في الشرق الادنى ففي سنة ١٩٠٠ كانت العلاقات التجارية الروسية التركية تكون ٩ بالمائة من مجموع التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية .وفي هذا الوقت كان المجموع السنوي لقيمة البضاعة المصدرة من روسيا الى تركيا ٣٠ مليون روبل والى فارس ٤١ مليون روبل وكانت معظم تلك الصادرات من الاقمشة والدقيق والجلود والحبوب . ولا شك في أن فوائد هذا المشروع لا تقتصر على سد حاجة أسواق تركيا بما تحتاج اليه من الحبوب فقط بل ستسهل لها عملية تصدير المواد الغذائية الى الاسواق

---

(١) تشاريكوف ـ تساؤلات حول مشاريع السكك الحديدية في آسيا الصغرى ـ مقتطفات جغرافية وطوبوغرافية حول آسيا ج ٩ بتروغراد سنة ١٨٩١ ص ١٠ « باللغة الروسية » .

(٢) نوفيجيف ـ اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ١٤٦ « باللغة الروسية »

العالمية. وسيصبح بامكان المنتجات العثمانية منافسة المنتجات الروسية في تلك الاسواق . يضاف الى ذلك المنافسة التي ستتعرض لها المنتجات الروسية في الاسواق العثمانية والفارسية من تدفق البضائع الالمانية والنمساوية . كما ستغزو الاسواق الاوروبية ملايين الاطنان من حبوب وادي الرافدين بعد تنفيذ المشروع مما سيوجه ضربة قوية للمنتجات الزراعية الروسية في اسواق اوروبا (١) .

اما المخاطر العسكرية للمشروع فتكمن في أنه سيسهل على الدولة العثمانية نقل جيوشها من كافة ارجاء الامبراطورية الى حدود روسيا الجنوبية . وستقوى تركيا عسكريا وهي التي تحتفظ بمفتاح البحر الاسود . كما سيسهل المشروع نقل الجنود من اوروبا الى حدود القفقاز وقد أشار الفون كولتز على السلطان العثماني صراحة بان تتهيأ الامبراطورية العثمانية للعدو الكبير ويقصد به روسيا . وستظهر أهمية السكك الحديد في هذا المجال لقيامها بنقل الجيوش من اوروبا الى حدود القفقاس خاصة وقد أكد الامبراطور وليم الثاني بان الدولة العثمانية ستكون حليفة لالمانيا في حربها المنتظرة ضد روسيا (٢). كما اعتبرت روسيا أن تنفيذ المشروع سيؤدي الى احتلال الالمان آسيا الصغرى بصورة سلمية وذلك عن طريق ارسال المهاجرين الى المناطق التي سيمر بها خط السكة وكان الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» قد دعا الى ذلك صراحة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وما

---

(١) توميلوف ــ تقرير حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١ بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ « باللغة الروسية »

2 - Earle Edward mead - Tuyrky the great power and the Baghdad railway . New york 1939 p. 65 66 .

سيؤدي اليه ذلك من ارهاق الخزينة العثمانية ورأس المال العـــالمي في مشاريع وأهداف لا تخدم مصالح روسيا القيصرية اطلاقا [1]. ولا يخفى أن روسيا لا ترغب أن يكون لها جار قوي ولذلك فانها تعمل علـى أن تبقى الدولة العثمانية ضعيفة . ولا يفوتنا أن نشير الى وجود مشـروع روسي مقترح حول مد خط حديدي من ارمينيـــا الى الاسكندرونة ، مما يجعل مشروع سكة حديد بغداد معارضا لهذا المشـروع الروسي . وذلك مما يزيد في معارضة روسيا مثل هذه المشـاريع . وقد ازدادت المقاومة الروسية للمشروع شدة بعد ان طرح المهنـــدس النمســاوي «ليسمان» مشروع بناء جسر يربط بين ضفتي البوسفور في المكان الذي لايزيد فيه عرض المضيق ٦٠٠م بين حصار روميلي وحصـــار اناضول . وكان القصد من وراء هذا المشروع ليس فقط ربط السكـــك الحديدية المباشرة بين اوروبا وآسيا بل انه يحمل اهدافا عسكرية ايضا تتمثل ببناء القلاع والحصون العسكرية على جانبي الجسر المقتـــرح [2] . فادرك الحكام الروس خطورة المشروع على مصالح روسيـــا الاستعماريـة وضرورة بذل جهود مكثفة لتحويل مسار السكة من الشـرق والجنوب بعيدا عن سواحل البحر الاسود والقفقاس وخاصة بعد فشل محاولاتهم الرامية الى احباط المشروع قبل ولادته . فتقـدمت الحكومة الروسية بطلب الى العثمانيين حول حصول روسيا على امتياز بنـــاء السكـك الحديد في المناطق الواقعة في جنوب سواحل البحـــر الاسود ودارت محادثات بهذا الشأن بين السفير الروسي في اسطنبول «زينو فيسيف»

---

1 - Ibid p. 140

2 - W L. Langer diplomacy of Imperialism 1890 - 1902 New-york 1961 p. 640 .

ووزير خارجية الدولة العثمانية توفيق باشا • وكانت السفارة الالمانية في العاصمة العثمانية تتابع اخبار هذه المحادثات بكل دقة وعناية ولم تقف في وجهها أية صعوبة في حصولها على ما دار في تلك المحادثات نظرا للعلاقات الحسنة القائمة بين المانيا والدولة العثمانية • وحينما علم السفير الالماني في اسطنبول ـ مارشال ـ بالمشروع الروسي حول انشاء خط حديدي في المناطق الجنوبية للبحر الاسود اقترح على حكومته وجوب اتخاذ موقف صلب لاحباط المشروع الروسي والمباشرة بانشاء سكة حديد بغداد دون انتظار النتائج النهائية للمحادثات الروسية العثمانية ودون انتظار تقرير لجنة «شتيمريخ» الموفدة الى بلاد ما بين النهرين حول تثبيت مسار الخط • واقترح أن يكون هذا المسار من خلال دياربكر ـ الموصل ثم الضفة اليسرى لنهر دجلة • وقد اعتقد مارشال ان هذه الاقتراحات سوف لاتخدم المصالح الالمانية فقط ولكنها ستحبط محاولات روسيا في الحصول على امتياز انشاء خط حديدي في جنوب البحر الاسود [1] •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وصلت المفاوضات الروسية ـ العثمانية الى طريق مسدود في شباط عام ١٩٠٠ بسبب تعنت الجانب العثماني لاعتقاده بعدم لجوء روسيا القيصرية الى اسلوب القوة في الحصول على هذا الامتياز يضاف الى ذلك النشاط الدبلوماسي الالماني في احباط تلك المفاوضات في الوقت الذي طلبت فيه من روسيا المساهمة في المشروع [2] • فحاولت الدبلوماسية الالمانية

---

(١) بروسليمسكي ـ السياسة الخارجية والدبلوماسية الالمانية في نهاية القرن التاسع عشر موسكو ١٩٥١ ص ٥٠٢ « باللغة الروسية »

(٢) Earle p. 83 .

اقناع السفير الروسي بان تعاون اصحاب رؤوس الاموال من الروس والالمان في آسيا الصغرى يعتبر من أحلام وطموحات الساسة الالمان في الوقت الذي آوصى فيه السفير الالماني المسؤولين العثمانيين بضرورة قطع مفاوضاتهم مع روسيا . وحاول الحكام العثمانيون استغلال الخلافات الروسية الالمانية وتعميقها لصالحهم . وعلى هذا الاساس كشف توفيق باشا للسفير الالماني في ٢٥ شباط ١٩٠٠ محادثاته مع السفير الروسي في اسطنبول والذي اعلن بان روسيا ستكشف عن مطالبتها في الحصول على امتيازات السكك الحديد في آسيا الصغرى فيما اذا رفضت الدولة العثمانية الامتياز الالماني لمشروع سكة حديد بغداد . وبعكس ذلك فقد هدد زينو فيسيف بقيام الثورة في شبه جزيرة البلقان ضد السلطات العثمانية[1] ولما علم الروس بذلك طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها في اسطنبول ان يكون حذرا في محادثاته مع المسؤولين العثمانيين وأن يكف عن المواقف العلنية والصريحة في مناهضة المصالح الالمانية في الامبراطورية العثمانية . فتوقف زينو فيسيف الحاحه على السلطات العثمانية برفض مشروع سكة حديد بغداد خاصة وقد انتهى خطر قيام الثورة في البلقان الذي استغلته روسياكوسيلة للضغط على الدولة العثمانية من اجل تنفيذ مطاليبها .

ويتضح الموقف الروسي الجديد في الرسالة التي بعث بها وزير خارجية روسيا موار فيسيف الى السفير الروسي في برلين التي تضمنت عدم معارضة روسيا للمشروع كليا وانما اقتصرت على عدم اقتراب السكة من المناطق الواقعة الى الجنوب من سواحل البحر الاسود حيث المصالح الاستعمارية لروسيا وعلى ضوء الموقف الروسي الجديد أراد

---

(١) نوفيجيسيف ـ تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٢ « باللغة الروسية » .

زينو فيسيف ان يقنع المسؤولين العثمانيين بمنح رؤوس الاموال الروسية امتيازات انشاء الخطوط الحديدية في المنطقـــة المذكورة اذا ما قررت السلطات العثمانية انشاء تلك الخطوط هناك (١) . الا ان الدبلوماسية الالمانية عارضت المواقف الروسية الجديدة كما عارضها السفير البريطاني في اسطنبول ــ كونور ــ الذي هاجم المطاليب الروسية بشدة حتى أنه في ٢ مارس سنة ١٩٠٠ هدد برفض الحكومة البريطانية تنفيذ التعهدات الملقاة على عاتقها بموجب اتفاقية قرض سنة ١٨٧٨ اذا ما منحت روسيا مثل تلك الامتيازات (٢) كما حاولت الدبلوماسية البريطانية دفع المانيا مجابهة المشاريع الروسية فنبه رئيس وزراء بريطانيـــا في كانون الثاني سنة ١٩٠٠ الحكومة الالمانية الى التحشدات الروسيـــة في آسيا وان الغرض منها ارهاب السلطات واجبـــاره على الموافقـــة على المشاريع الروسية ، وان روسيا تنوي بناء شبكة من الخطوط الحـــديدية تحيط بسواحل البحر الاسود . ودعا للعمل المشترك لاحبـــاط تلك المشاريع . وساهمت الصحافة البريطانية ايضا في ذلك فقد أشارت بعضهـــا الى وجود تحشدات روسية تقدر بـ ٢٥٠ ألف جندي على الحدود الروسية العثمانية في القفقاس (٣) .

وعلى الرغم من معارضة بريطانيا والمانيا وفرنسا واتهامهم روسيـــا بمحاولاتها لتحويل آسيا الصغرى الى منطقة نفوذ روسية فقد استمرت

---

(١) خفستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ج ٢ ، موسكو ١٩٦٣ ص ٤٥٥ ــ ٤٥٦ . « باللغة الروسية »

(٢) مذكرات زينوفيسيف ٤ ــ ١٧ مارت سنة ١٩٠٠ موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

(٣) Standard 28 Mart 1900 .

المحادثات الروسية العثمانية. وتتضح اهداف روسيا من هذه المفاوضات من فحوى الرسالة التي بعث بها موارفيسيف الى القيصر نيقولا الثاني: وقد جاء فيها : تهدف شروطنا التي نطرحها على السلطـــان الى تأمين المناطق الغربية من سواحل البحر الاسود وحدودنا مع آسيا الصغرى في القفقاس من أي عدوان أو غزو اجنبي وذلك بان يمتنع السلطان عن منح اقامة السكك الحديدية في هذه المنطقة لأية دولة اجنبية ، وان يتعهـد كذلك بعدم تحصين البوسفور . كما دعا مورا فيسيف في رسالته الى التوفيق بين المصالح الروسية والالمانية في الامبراطورية العثمانية بشرط أن لا يفسح المجال لالمانيا بان تلعب دور فعال على سواحـل البوسفور حيث تملك روسيا مهمة تاريخية [1] ، لقد حققت المفاوضات الروسيـة العثمانية تقدما ملحوظا عندما وقع وزير الخارجية العثماني توفيق باشا مع السفير الروسي في اسطنبول زينو فيسيف اتفاقا في ٣١ مارت سنة ١٩٠٠ تضمن موافقة الجانب العثماني على انه اذا ما تقرر انشاء خطوط حديدية في المناطق الممتدة بين سواحل البحر الاسود وخط المدن المتمثل بـ انقرة ــ قيصرى ــ سيواس ــ خاربوت ــ دياربكر ــ وان . فانها ستقيمها باموالها الخاصة وفي حالة عجز رأس المال العثماني عن القيـام بذلك فيمنح الامتياز الى رؤوس الاموال الروسية بنفس الشروط التي منح بموجبها مشروع سكة حديد بغداد ــ برلين الموقعة في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ [2] علما ان روسيا لم تحقق كل طموحاتها واهدافهـا بهذا الاتفاق اذ ان تعهد السلطان بعدم منح الدول الاجنبية أي امتيـاز

---

(١) الارشيف الأحمر ، موسكو ١٩٢٦ ص ١٠ـ١١ «باللغة الروسية»

(٢) نوفيجيف ــ تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٣ « باللغة الروسية » .

بناء السكك الحديدية خلال عشرة سنوات في مناطق آسيا الصغرى الواقعة على سواحل البحر الاسود وعلى حدود روسيا في القفقاس كانت عهدا شكليا [1] كما استثنى الاتفاق المنطقة الممتدة بين مدينة ادا بازر ـ هرقليا من احكامه وذلك بتأثير النفوذ الالماني على السلطان العثماني كما لم يعالج الاتفاق كافة المشاكل التي تعاني منها روسيا القيصرية والتي ظهرت نتيجة للتوغل الالماني في الامبراطورية العثمانية. وكان المكسب المهم الذي حصلت عليه روسيا من ذلك هو تعهد العثمانيين بابعاد مسار سكة حديد بغداد عن سواحل البحر الاسود وان يكون مسارها جنوب انقره عبر جبال طوروس ثم أضنه ـ حلب ـ الموصل ـ بغداد .

ان نجاح المانيا في حصولها على امتياز سكة حديد بغداد ثم تواجد البعثات العسكرية الالمانية وتزويد الجيش العثماني بالسلاح الالماني ومحاولة الحصول على امتيازات جديدة لمد فروع جديدة لسكة حديد بغداد . كل هذه الامتيازات تعني وقوع الدولة العثمانية في الحلقة الستراتيجية العسكرية الالمانية . وهذا مما زاد من قلق العسكريين الروس وشعورهم بالخطر الالماني المتزايد ولم يكن من الصدفة ان ترسل الحكومة القيصرية بعثة عسكرية تحت اشراف الجنرال (توميلوف) في سنة ١٩٠٠ لدراسة الاهمية العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد فكان على البعثة ان تدرس أهمية الخط للمسافة بين أضنة ولموصل واثر ذلك على سرعة نقل الجيوش العثمانية الى حدود القفقاس .

فجاء تقرير اللجنة بعد زيارتها لتلك المنطقة موضحا ما ينطوي عليه

---

(1) W. L. Langer p. 646 .

هذا المشروع من مخاطر عسكرية تهدد حدود روسيا الجنوبية وخاصة منطقة القفقاس. فقد جاء في التقرير (ان السكك الحديد ستساعد على نقل الفيلق التركي الخامس الموجود في ديار بكر الى الحدود الروسية بمدة لا تتجاوز نصف اسبوع في الوقت الذي كان مقررا ان هذه العملية تستغرق اسبوعين ونصف او ثلاثة أسابيع . وبالنسبة للفيلق السادس المتواجد في آرضروم فلا تزيد مدة نقله على ثلاثة أيام بدلا من اسبوعين او ثلاثة كما ستساعد السكة على تنقل الجيوش العثمانية بسرعة للقيام بمناورات عسكرية ضد روسيا يضاف الى ذلك انه سيصبح بامكان الدولة العثمانية الابقاء على وحدات عسكرية قليلة في هذه الاماكن وتتكاثف عند الحدود الروسية [1] وأشار في ختام تقريره الى خطورة النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية بالنسبة للمصالح الروسية . وفي الواقع فان هذا المشروع يعزز مكانة الدولة العثمانية العسكرية بقدر ما يقوي من مركز الامبريالية الالمانية في الامبراطورية العثمانية ، وسيكون بامكان الجيش الالماني الوصول الى حدود القفقاس بفترة زمنية تتراوح بين ٦ ــ ١٠ ايام كما سيتيح للامبريالية الالمانية السيطرة على مضايق البوسفور والدردنيل وستتمكن من فرض حصار عسكري على المناطق الجنوبية للحدود الروسية ويسهل عملية وصولها الى فارس . لقد حددت هذه الاسباب اضافة الى تهديد معالم الطبقات المتنفذة في روسيا القيصرية موقف الدبلوماسية الروسية من مشروع سكة حديد بغداد . حاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق اقناع بريطانيا بعدم المساهمة المالية في تكاليفه [2] كما تمكنت من صرف

---

(١) توميلوف ــ ملاحظات حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١ بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٤١٣ ــ ٤١٥ « باللغة الروسية »

2 - J. B. Walf - the diplomatic history of Baghdad Railroad L. 1933 p. 40 .

فرنسا عن المشروع ولو لفترة قصيرة ولكن سرعان ماغيرت فرنسا موقفها واظهرت استعدادا للمساهمة فيه ولم تقف فرنسا عند هذا الحد بل اخذت باقناع روسيا للمشاركة المالية في المشروع اذ انها اعتقدت ان رفض روسيا ما هو الا مناورة للحصول على مكاسب سخية ولذلك استمرت محاولاتها في اقناع روسيا مستغلة كونها في حلف واحد الا ان المحاولات الفرنسية هذه باءت بالفشل ولم تلق تأييدا من قبل لامزداروف وزير الخارجية وفيته وزير المالية اللذين يمثلان العناصر الاكثر رجعية في الحكومة الروسية ، وقد أيدتها الصحافة الرجعية في روسيا كصحيفة الازمنة الحديثة التي نشرت في آب١٩٠١ مقالتين أكدت في المقالةالاولى على ان مشروع السكة لا يخدم الا مصلحة المانيا فقط وانتقدت موقف بريطانيا من المشروع واعتبرت مساهمتها او تأييدها للمشروع تدميرا لمصالحها لانها تساعد المانيا على الوصول الى الخليج العربي [1] . واكدت في المقالة الثانية على أن مساندة بريطانيا مشروع سكة حديد بغداد يعني مساهمتها في فتح الطريق للبضائع الالمانية لكي تصل الى الهند . كما هاجمت الصحيفة وأنصارها المساندة الفرنسية للمشروع واعتبرت مساهمة فرنسا فيه متناقضة لمضمون الاتفاق الروسي الفرنسي سنة ١٨٩١ [2] .

وفي اللقاء الذي تم بين القيصر نيقولا الثاني والامبراطور وليم الثاني في مدينة دانزاك في الفترة ١١ـ١٣ ايلول سنة ١٩٠١ حاول الامبراطور الالماني اقناع القيصر الروسي في أن مشروع سكة حديد بغداد مشروع تجاري صرف وأن أهدافه عالمية وان مصلحة روسيا ستؤخذ بنظر الاعتبار عند تحديد مسار السكة وان المانيا سوف لاتساهم

---

(١) الازمنة الحديثة ١٧ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

(٢) الازمنة الحديثة ١٨ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

باكثر من ٢٥ بالمائة من مجموع اسهم الشركة • وفي ٢٤ ايلول سنة ١٩٠١ اعلن وزير خارجية المانيا عن قناعة القيصر الروسي بسياسة المانيا في الشرق وترحيبه بفكرة مساهمة راس المال الروسي في المشروع واعتقاده بصحة ادعاءات المانيا بان مشروع السكة تجاري بحت• ويظهر ان هذه الاتفاقيات لم تنعد اطار المجاملة اذ استمرت الصحافة الروسية في مهاجمة مشروع السكة كما استمر زينو فيسيف في مناهضته للسياسة الالمانيةفي اسطنبول ولذلك فقد طلب بيلوف ــ وزير خارجية المانيا في ١٩ تشرين أول من عام ١٩٠١ من الممثل الالماني في بتروغراد ان يحتج لدى الحكومة الروسية حول المقالات اللاذعة التي توجهها الصحافة الروسية ضد المانيا ووجوب الفات نظر زينو فيسيف للكف عن مهاجمته الدبلوماسية الالمانية في العاصمة العثمانية الا ان جواب لامزداروف على مذكرة الاحتجاج لم يكن مرضيا اذ جاء في قوله لا تدهشه تحركات الصحافة الروسية مادامت هذه التحركات متطابقة مع المصالح الروسية والالمانية (١) وحاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق مطالبتها للسلطة العثمانية بدفع ما بذمتها من غرامات نقدية وتعويضات الحرب• ومن جانب آخر استمرت الضغوط الالمانية لاقناع روسيا للمساهمة في المشروع ضمن شروط مغرية مثل اعطائها ٤٠ بالمائة من مجموع الاسهم وحصولها على مركز ملائم في مجلس ادارة السكة• ومع ذلك بقيت روسيا متحفظة تجاه هذا المشروع وفي كانون الثاني من سنة ١٩٠٢ اعلن فيته وزير مالية روسيا أسباب رفض روسيا المساهمة في مشروع السكة وهي : ــ

١ ــ ستنقل سكة حديد بغداد الحبوب والغلال الرخيصة من

---

(١) مذكرات زينو فيسيف ١٥تشرين ثاني سنة ١٩٠١ موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

آسيا الصغرى وبلاد مابين النهرين الى الاسواق الاوروبية فتنافس الغلال والحبوب الروسية .

٢ ــ ستقلل من اهمية الطريق البري بين اوروبا والهنـــد عبر آسيا الوسطى .

٣ ــ ستزيد السكة من قوة النفوذ الاجنبي في آسيا الصغرى .

٤ ــ أن تعدد مالكي المشروع سيعرقل ازدهاره . وقـــد تنفرد في المستقبل دولة واحدة بالسيطرة عليه ، كما حصل بالنسبة لقنـــاة السويس وان هذه الدولة سوف لا تكون روسيا .

٥ ــ سيشتد الصراع بين الدول الاوروبية بعد تنفيذ المشروع.

٦ ــ ستقوم الدولة العثمانية بالدفع لسد نفقات المشـــروع الى الدول الاوروبية بدلا من دفعها هذه المبالغ الى روسيـــا كغرامـــات حربية (١) .

٧ ــ تفضل السلطة القيصرية صرف امكانياتها المالية على مشاريع السكك الحديدية داخل روسيا بدلا من صرفها على مشروع سكة حديد بغداد (٢) .

وعلى الرغم من الوضوح الذي اتسم به موقف روسيا فقد استمرت محاولات فرنسا في جر روسيا للمساهمة في المشروع ، ففي نهاية كانون الثاني سنة ١٩٠٢ عرض وزير خارجية فرنسا دلكاسيـــه على السفيـــر

---

(١) كانت الغرامة المالية التي فرضت على الدولة العثمانية بعد حربها مع روسيا ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ ٧٠٠ مليون فرنك .

(٢) مجلة اخبار المال والصناعة والتجارة ٦ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ بتروغراد « باللغة الروسية »

الروسي في باريس «ارسوق» قيام فرنسا بدفع قيمة الاسهم الروسية في المشروع فرفض فيته العرض الفرنسي الجديد. ومن جانب آخر فقد استمرت صحيفة الازمنة الحديثة في انتقاداتها اللاذعة للسياسة الفرنسية وموقفها من مشروع سكة حديد بغداد ، ووصفت مساهمة فرنسا في المشروع بانه دليل على عدم اعتراف فرنسا بواقع علاقاتها مع روسيا ، وبموجب مضمون الاتفاق الروسي الفرنسي فان على روسيا ان لا تساند المشاريع الالمانية في الالزاس واللورين وانطلاقا من هذا المبدأ يجب على فرنسا ان لا تساند او تسعى الى تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد [1] .

وبعد التوقيع النهائي على امتياز سكة حديد بغداد في سنة ١٩٠٢ سلكت الدبلوماسية الروسية اسلوبا جديدا لمناهضة المشروع، فقام زينو فيسيف بتحذير السلطات من الكارثة المالية والتضحيات المالية التي ستلازم عملية تنفيذ المشروع. ودعا زينو فيسيف الى اتباع كافة الوسائل لمنع قيام أي اتفاق تجاري جديد بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية . ودعا فيه الى عدم موافقة الحكومة الروسية على زيادة نسبة الضرائب والمكوس الخارجية الى ١١ بالمائة ولكن على العكس يجب المطالبة بتخفيضها الى حد ٣ بالمئة كما يرى من الضروري أن تدفع الدولة العثمانية ما بذمتها من الغرامات المالية لروسيا ووجوب وضع اشراف على نظام الدولة العثمانية المالي في استلام الضرائب من الولايات العثمانية الاخرى لحساب تسديد الديون بذمة الدولة العثمانية [2] وقد عارضت السلطة القيصرية مشروع

---

(١) الازمنة الحديثة ـ موسكو سنة ١٩٠١ ـ ١٨ مارت . « باللغة الروسية »

(٢) نوفيجيف ـ اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى . موسكو ١٩٣٧ ص ١٥٨ « باللغة الروسية »

زيادة القروض للدولة العثمانية والذي تقدمت به البنوك الالمانية وأيدتها البنوك الفرنسية على ان يتم انفاق هذه القروض على مشروع سكة حديد بغداد .

وحاولت روسيا أن تجر الى جانبها امبراطورية النمسا والمجر في سبيل عرقلة تنفيذ المشروع فقد اقنع زينو فيسيف سفير النمسا والمجر في اسطنبول في أن سبب فقر مقدونيا يعود الى ضآلة ما تنفقه الدولة العثمانية في تلك البلاد واتفق الدبلوماسيان على مطالبة السلطة العثمانية بأن تزيد من الانفاق على المشاريع الاصلاحية في مقاطعة مقدونيا من الاموال التي تحصل عليها من القروض الاجنبية او زيادة الضرائب والرسوم الجمركية . وقد حظيت هذه الآراء بتأييد وزير خارجية النمسا والمجر لاسيما وان سياسة النمسا والمجر كانت تناهض السياسة الالمانية حينذاك [1] . وهكذا اتفق وزيرا الدولتين ـ النمسا والمجر وروسيا ـ على احباط مشروع سكة حديد بغداد مشروع حلفائها ـ المانيا وفرنسا. وحاولت الدبلوماسية الروسية احباط المشاريع الالمانية حول انشاء فروع لسكة حديد بغداد . ففي أوائل مارت سنة ١٩٠٢ علم زينو فيسيف من سفير فارس في اسطنبول بمحاولات الرأسماليين الفرس ومن وراءهم الالمان الهادفة الى انشاء فرع لسكة حديد بغداد يصل بين بغداد وخانقين ثم بغداد وكربلاء والنجف ، حيث يصل سنويا الى هذه المناطق ما يزيد على ١٠٠ ألف من زوار العتاب المقدسة في العراق ، ويمكن تنفيذ هذا المشروع بمبالغ قليلة في فترة زمنية قصيرة . وقد ازعجت هذه الانباء

---

(١) مذكرات زينو فيسيف ـ ١٦ آب سنة ١٩٠٢ ، موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

حكام روسيا لخوفهم من وصول النفوذ الالماني الى شمال فارس الـذي تعتبره روسيا من مناطق نفوذها .

ولاحباط هذا المشروع اخبر زينو فيسيف سفير فارس فياسطنبول بان انجاز هذا المشروع سيؤدي الى زيادة عدد الحجاج الفرس الوافدين للعتبات المقدسة ـ النجف وكربلاء ـ وهذا يعني زيادة في كمية النقود التي ستصرف خارج البلاد مما يلحق اضرارا بليغة باقتصادياتهـا ولهذا ينصح حكومة فارس بعدم الموافقة على هذا المشروع [1] .

عقد في بتروغراد في ايلول سنة ١٩٠٢ مؤتمر لمناقشة سبل عرقلـة تنفيذ مشروع السكة ، ضم الاجتماع كلا من وزير الخارجية لامزداروف ووزير المالية فيته ووزير الحربية كروباتكين وزينو فيسيف سفير روسيا في اسطنبول . وكرر كروباتكين خطورة المشروع على المصالح الروسية في النقاط التالية :

١ ـ ان المشروع يحرم روسيا من جميع الفوائد المترتبة على امتلاك السكك الحديد في آسيا .

٢ ـ ستساعد السكة العثمانية في القيام بتحشـدات عسكرية سريعة على الحدود الروسية .

٣ ـ سيصبح بامكان المانيا ان تمد هذا المشـروع الى ميناء «شانتونغ» في البر الصيني .

ويرى كروباتكين ان من وسائل درء هذا الخطر هو عدم مساهمة

---

(١) سياسة روسيا الخارجية ج ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقة ٣٦٢٥ ورقة ٣٢٩ « باللغة الروسية »

روسيا في المشروع والبدء بمحادثات جدية مع حكومـــة النمسا والمجر حول هذا الموضوع • وبعد مناقشة مستفيضـــة قرر المؤتمرون عـدم المساهمة في المشروع ووجوب العمل على عرقلة تنفيذه وفق الاساليـب الأتية :

١ ــ لايفسح المجال للباب العالي بتوقيع اتفاقيات تجـارية جديدة مع الدول الاوروبية ، ومنع السلطة العثمانية من زيـــادة الرسوم على البضاعة المستوردة وعلى العكس يجب اجبارها على تخفيضها الى نسبة ٣ بالمائة •

٢ ــ عدم معارضة السلطان في فرض ضرائب جديدة اذا ما تعهـد بصرف هذه المبالغ على المشاريع الاصلاحية في مقدونيا •

٣ ــ انشاء سكك حديدية منافسة لمشروع سكة حـديد بغداد [١] وهكذا اتبعت روسيا اسلوبا جديدا لعرقلة تنفيذ المشـــروع يقوم على اضعاف الدولة العثمانية ماليا ومع ذلك فان هذا الاسلوب لم يتمكن من منع المانيا من تنفيذ المشروع • ان تنفيذ السياسة الهجوميـة في الشرق الاقصى والموقف السياسي والاقتصادي لروسيا القيصرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لم تسمح لها ان تنهـــج في الشرق الادنى منهجا مشابها لسياستها في الشرق الاقصى ولذا فانهـــا لم تفكر بعد الحرب الروسية العثمانية في احتلال اسطنبول والمضايق بل فضلـت مساندة السلطان ليكون حارسا على بوابة البحـر الابيض المتوسط الى البحر الاسود [٢] • ولايعني هذا ترك روسيا مسألة المضـايق ومهادنة

---

(١) سياسة روسيا الخارجية جـ ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقـة ٣٦٢٦ ورقة ٤٢ « باللغة الروسية »

(٢) خنستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٤٥ جـ ٢ ص ١١٨ « باللغة الروسية »

النفوذ الالماني المتزايد في الامبراطورية العثمانيـــة بل على العكس فقد ازدادت نشاطات الدبلوماسية الروسية لمواجهة خطط الامبريالية الالمانية بعد ازدياد نفوذها في الدولة العثمانية في بداية القرن العشـــرين الا ان الحرب الروسية اليابانية ومضاعفاتها وثورة سنة ١٩٠٥ شغلت روسيا عن المواجهة الجدية للخطر الالماني في الامبراطورية العثمـانية وفارس لفترة قصيرة على أن زيادة النفوذ الالماني في فارس تلك البـــلاد التي تملك فيها مصالح استعمارية خاصة في المناطق الشمالية فيها ــ يضـــاف الى ذلك ازدياد نفوذ ــ حليفة روسيا بريطانيا ــ في المنطقة المحـايدة • قد حتمت هذه الظروف الجديدة مجتمعة على روسيا القيصـرية التقرب من المانيا فقام القيصر الروسي بزيارة برلين سنة ١٩١٠ وتم توقيع اتفاق مع المانيا في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ تعهدت روسيا فيـــه بالكف عن معارضتها مشروع سكة حديد بغداد مقابل اعتراف المانيـــا بالمصالح الروسية في شمال فارس وفقا لمعاهدة سنة ١٩٠٧ وتعهدت المانيا بعـدم الحصول على أي نوع من الامتيازات في المناطق الشمـالية مقابل تعهد روسيا بعدم عرقلة التجارة الالمانية في المناطق الاخرى من بـلاد فارس • كما تقوم روسيا بمد خط حديدي من طهران الى خانقين لكي يتم الاتصال مع سكة حديد بغداد وربط مشاريع السكك الحديد الروسيـة في ايران بمشروع سكة حديد بغداد [1] • وفي خريف عام ١٩١٣ حققت السلطـة القيصرية خطوة جديدة على طريق حماية مصالحها الاستعمارية في مناطق البحر الاسود وحماية حدودها في القفقاس من خطر اقتراب سكة حديد بغداد الى هذه المناطق • اذ وقعت في خريف ١٩١٣ مع الدولة العثمانيـة

---

(١) مجموعة الاتفاقات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ ــ ١٩١٧ موسكو١٩٥٢ ص ٤٢٥ « باللغة الروسية »

معاهدة جديدة تقوم على اساس الغاء معاهدة عام ١٩٠٠ وحـــل محلها تعهد السلطان العثماني لمدة عشر سنوات بعدم انشاء السكك الحديديـة في المناطق الواقعة الى الشرق من طرابزون ــ خربوط ــ دياربكر • واذا أصبحت هناك حاجة لانشائها فينفذ المشـــروع برؤوس أموال روسية فقط [١] •

وهكذا كان موقف روسيا من مشروع سكة حديد بغداد • فبعـد فشلها في احباط محاولة المشروع ثم فشلها في عرقلة تنفيـــذه سلكت طريقا جديدا يقوم على اساس حماية حدودها الجنوبيـــة في القفقاس ومناطق البحر الاسود من الخط الالماني المواكـــب لمسار الخط وذلك بالعمل لابعاد الخط عن هذه المناطق كما ضمنت مصالحهـا في الاقسام الشمالية في فارس من الخطر الالماني بعد اتفاقها مع المانيا سنـــة ١٩١٠ ومع السلطان العثماني سنة ١٩١٣ •

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) مجموعة الاتفاقيات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ ــ ١٩٣٧ موسكو ١٩٥٢ ص ٤٣٥ « باللغة الروسية »